في البنيـة العربيـة[١] مـا أنتـج اسـتخلاصات نظريـة محبطـة ومخيبـة للآمـال الناظـرة إلى أفـق للتغيـير، والخـروج مـن دوامـة السـلبية والاسـتنقاع الاجتماعـي المتماهـي مـع المسـتبد بحكـم واقـع الحـال، أو «الخـوف مـن الحريـة وكلفـة تبعـات التغيـير» حسـب إيـرك فـروم. وعـزّز الشـعور لـدى الحاكـم المسـتبد بحصانـة قلعتـه و»شرعيـة» سـلطته المسـتمدة مـن طـول مـدة حكمـه بـدلاً مـن شرعيتهـا الشـعبية، ومـدى قـدرة الدولـة عـلى التحكـم والسـيطرة واحتـكار المجـال العـام. فلطالمـا أطنـب خطـاب سـلطات الاسـتبداد العـربي ودولتـه الشـمولية في مـدح صمودهـا، وتغـنى بحصانتهـا ومقاومتهـا لأي تحـدّ أو تغيـير، وطالمـا أسـهبت منابـر إعلامـه الموجـه في وصـف دولتـه التسـلطية، بالدولـة المسـتقرة، وربـط أي ملمـح للانتقـال الديمقراطـي ووقـف الهـدر والفسـاد بالعمالـة للخـارج، الآخـر العـدو بمختلـف صفاتـه وصـوره المتخيلـة وأقـرن أي فعـل اجتماعـي بالفـوضى والسـعي، لتقويـض الاسـتقرار وإضعـاف الشـعور القومـي، واتهـام أي نشـاط سـياسي بالخيانـة والتآمـر للنيـل مـن مقاومتـه وممانعتـه، حـتى باتـت فكـرة المؤامـرة حلقـة مركزيـة مـن ثقافـة سياسـية ذات نـزوع قومـي تعصبـي، تنبـع مـن مركزيـة الأنـا المتضخمـة الـتي لا تسـتطيع أن تـرى الآخـر المختلـف بغـير صـورة العـدوان.

لـم تكـن «الثـورات العربيـة» متوقعـة، رغـم كل إرهاصاتهـا، بـل إنهـا لـم تكـن متوقعـة بالصفـة الجديـدة الـتي اتخذتهـا، وصفـة الفاعلـين الجـدد فيهـا، والغايـات والأهـداف الـتي رسـمتها، في جميـع الـدول العربيـة الـتي وصلهـا التغيـير، أو لفحهـا وهجـه، رغـم الاختلافـات الجزئيـة بـين هـذه الدولـة أو تلـك، ورغـم انحـدار الثـورة سريعـاً نحـو العنـف في بعضهـا (ليبيـا وسـورية واليمـن) ومـا زالـت آفاقهـا مجهولـة، الأمـر الـذي قـد يجـد تفسـيره في اختـلاف تركيبـة السـلطة وعنفهـا، وغيـاب هامـش الاسـتقلال النسـبي بـين مؤسسـات الدولـة الـتي تغوّلـت السـلطة عليهـا جمعيهـا، واختـلاف التركيـب البنيـوي للنسـيج الاجتماعـي فيهـا مـن ناحيـة أخـرى، وفي الفجـوة الزمنيـة القصـيرة الـتي ربمـا أتاحـت لسـلطاتها ضبـط إيقـاع أجهزتهـا في مواجهتهـا، والتمكـن مـن التدخـل وحـرف مسـار فعلهـا. فطابـع الثـورات العربيـة كحالـة تمـرد اجتماعـي شـامل، أو انتفاضـة شـعبية واسـعة سـلمية الطابـع، واقتصـار شـعارها عـلى الحريـة والكرامـة كقيمتـين عاليتـين في الوجـدان الإنسـاني قبـل أي مطلـب آخـر، وتحديـد غاياتهـا بإسـقاط نظـام القهـر والاسـتبداد، وتحديـد خصمهـا بشـخص الحاكـم الحقيقـي أو الاعتبـاري بحكـم الإدراك العفـوي لغيـاب الحـدود بـين الشـخصيتين، وبـين الحاكـم والنظـام، قـد جعـل منهـا ثـورات خارجـة عـن الصـورة النمطيـة للثـورة المعروفـة، سـواء في تمثلهـا الذهـني أو في تجسـدها التاريخـي فيمـا عرفـه هـذا العالـم مـن ثـورات. فـلا قيـادة كاريزميـة أو خطيـب عسـكري أو سـياسي أو نقـابي أو ديـني مفـوه يتكلـم بصـوت الجماهـير ويحشـد صفوفهـا، ولا أيديولوجيـا حزبيـة أو خلاصيـة أو لوائـح مطلبيـة تنظـم توجههـا، ولا ارتبـاط سـياسي بمركـز قـرار دولي يحـدد سياسـة تبـادل المصالـح، وإنمـا طاقـة تمـرد حيويـة ومثابـرة قـادرة عـلى تقويـض السـلطة القائمـة وتعجـز عـن بنـاء سـلطة بديلـة. إنهـا لا تشـبه غيرهـا مـن الثـورات، تشـبها ذاتهـا أكـثر؛ لأنهـا ثـورات الشـباب، الـتي تحمـل روح تمـرده وطابـع مراهقتـه العصيـة عـلى

لم تكن «الثورات العربية» متوقعة، رغم كل إرهاصاتها، بل إنها لم تكن متوقعة بالصفة الجديدة التي اتخذتها، وصفة الفاعلين الجدد فيها

١ "الربيع العربي" بين الثورة والفوضى- خليدة كعسيس- خلاصي- آراء ومناقشات.